الأكاديمية للدراسات
الإجتماعية والإنسانية

ظاهرة الاغتراب في شعر علي كنعان

Alienation Phenomenon in Ali's Ken'an verse

[أ] اياد نيسي، [ب] د. ناصر زارع، [ج] د. رسول بلاوي
[أ] طالب دكتوراه في فرع اللغة العربية وآدابها بجامعة خليج فارس في بوشهر-الجُمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة | omidomid857.aan@gmail.com
[ب] الكاتب المسؤول، عضو الهيئة التدريسية بجامعة خليج فارس في بوشهر- الجُمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة | nzare@pgu.ac.ir
[ج] عضو الهيئة التدريسية بجامعة خليج فارس في بوشهر/ الجُمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة

ملخص

إنّ تجليّات الحزن والقلق والضياع، هي مظاهر شتى للشعور الاغترابي لدى الإنسان منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا. يُعتبَر الشعور بالغربة من أهم القضايا العريقة في الأدب، لأنه يرتبط بالإنسان نتيجة دوافع اجتماعية ونفسية وفكرية، و من هذا المنطلق فإنّ لظاهرة الاغتراب والشعور بالوحدة مكانة مرموقة في الشعر العربي لا يقابلها أي شيءٍ آخر. وقد نَتجَ هذا اللون من الشعر ردة فعل على التّدهور في الأوضاع السياسية والاجتماعيّة والاقتصادية في المجتمعات البشرية. تبحث هذه الدراسة عن ظاهرة الاغتراب بوصفها سمة بارزة في أشعار علي كنعان، وقد رصدت تأثيرات هذه الظاهره على نتاجه الإبداعي الشعري. نحن في هذه الدراسة اعتمدنا في خطتها على المنهج الوصفي التحليلي مُراعين فيها استقصاء الأنواع المختلفة من الاغتراب، ومن ثُمّ تطبيقها على نماذج شعريّة لعلي كنعان كأديب شهير في الشعر السوري المعاصر. وهذه الظاهرة الاغترابيّة في شعر علي كنعان تكشف عن أبعاد خباياه الذهنيّة والروحيّة باعتباره أديباً من أكبر الأدباء النابهين في زمننا المعاصر.

الكلمات الدالة: الشعر السوري المعاصر، الاغتراب، علي كنعان.

Abstract

Manifestations of sorrow, anxiety, and loss are aspects of alienation sensation to human being since a long time up to our days. Alienation sensation is considered one of the important old issues in literature for its connection to man due to social, psychological, and intellectual motifs. Accordingly, Alienation phenomenon and loneliness feeling have an outstanding position in the Arabic poetry that nothing can confront. This kind of verse was a reaction to the deterioration in the political, social, and economic conditions in the human communities. The current study tackles alienation phenomenon as a prominent feature in Ali's Ken'an verse. Influences of this phenomenon were observed on his creative poetic outcome. In this study, we depended on the descriptive analytical approach to make its plan, taking into account the inquisition of the various types of alienation, then applying them on poetic samples to Ali Ken'an as a famous literary man in the contemporary Syrian verse. This alienation phenomenon in Ali's Ken'an verse discovers its cognitive and spiritual hidden contents for he is a great literary man amon the discerning literary men in our contemporary time.

Key words: *Contemporary Syrian verse, Alienation, Ali Ken'an.*

مقدمة

الغربة والحنين هي ظاهرة نفسية واجتماعية قديمة قدم الإنسان، والأدب العربي مشحون بهذه الشواهد منذ بداياته، لذا إن المنفى الأدبي ليس جديداً تماماً في الأدب العربي، بحيث كان الشعراء القدماء في العصر الجاهلي يقفون على الأطلال للتعبير عن شعورهم بالغربة عن الأحبَّة والأمكنة التي هجروها، والحنين لها. سلك العديد مِن الشعراء العرب الذين عانوا تجربة الغربة والشعور بالوحدة والحنين هذا المسلك على مرِّ العصور الأدبية، وظلت تلازمهم في ترحالهم.

إنَّ الظروف السياسية التي عاشتها سوريا في العقود الأخيرة أدت إلى مغادرة الكثير من الأدباء السوريين وطنهم، والخطو في سبيل الهجرة. لقد تناول هذا البحث شاعراً وأديباً شاع الاغتراب في فكره وشعره، كما تبيّن للباحث جليًّا بعد إلقاء نظرة شاملة وكاملة في انتاجه الإبداعي، وفي تصريحاته التي أدلى بها هناك وهناك.

- **يهدف هذا البحث إلى الإجابة عن هذه الأسئلة**

أولاً: ما هو الدافع الأساسي الذي حثَّ الشاعر علي كنعان على أن يخصص بعض أغراض شعره للاغتراب؟

ثانياً: ما هي المظاهر والملامح الاغترابيَّة في شعر علي كنعان؟

ثالثاً: ما هي السِّمات الرئيسية التي يتَّسم بها الاغتراب عند هذا الشاعر؟

- **خلفية البحث**

إنَّ ظاهرة الاغتراب نالت عناية واسعة في الأدب العربي وقد أُفردت لهذا الموضوع دراسات أكاديمية قيمة نالت قصب السبق، لذا بالرغم من دراسة هذه ظاهرة في عِدَّة كُتُب أو رسالات وأطاريح جامعية ولكن لم يختص مقال بدراسة ظاهرة الاغتراب في شعر علي كنعان، وهو من أعلام الشعراء السوريين المعاصرين، بحيث لم يتطرق الباحثون لدراستها بالقدر الذي يناسب حجم معاناة الشاعر. يُعدّ هذا البحث من الدراسات الهامة كونه يتناول الاغتراب ومظاهره في شعر الشاعر السوري علي كنعان، فالوقوف والنظر في الأشعار التي نظمها علي كنعان في الاغتراب يفتح لنا باباً جديداً للولوج إلى هذا اللون من الأدب، ومما لا غبار عليه فإنَّ هذا البحث يُعَدُّ وسيلة من الوسائل المعينة للمتطلعين والباحثين عن معرفة الاغتراب ومظاهره في شعر علي كنعان.

- **أسباب اختيار الموضوع**

1. غربة الشاعر السوري علي كنعان وسفره وتنقله لم يدرس بصورة دراسة مستقلة.

2. تأثير الغربة على الشاعر وعلى شعره.

- **الصعاب التي واجهت الباحث في أثناء البحث**:

1. الاعتماد على مصدر واحد وهو أعماله الشعرية.

2. كما أشرنا سالفاً لم يتطرَّق أحدٌ مِن الباحثين مِن قبل إلى دراسة هذا الموضوع بصورة موسعة وشاملة، ممَّا صَعَّبَ مُهِمَّة الباحث.

2. نظرة عابرة على حياة الشاعر السوري علي كنعان وحياته الشعرية

الشاعر علي كنعان من مواليد «1355هـ/ 1936م» في قرية «الهزة» التابعة لمحافظة حمص- سورية. ونشأ في أُسرة فقيرة، ثمَّ حفظ في صباه شطراً مِن القرآن الكريم، كما استظهر عدداً مِن الأشعار، وراحَ يلقي بعضها أمام الضيوف في الأسمار. وفي عام «1953م» شرع ينظم المقطعات مقلداً فُحول الشعر القديم أو أعلام الشعر الحديث. ظهرت باكورة شعره عام «1959م» في مجلة «الآداب». وهو شاعر مرهف الحس عانى في صباه مرارة البؤس والحرمان واستشعر الظلم الاجتماعي. درس الأدب الإنكليزي في جامعة دمشق، وتخرج عام «1965م»، وعمل أيضاً في الصحافة الثقافية «1964م - 1967م» ثمَّ مراقباً للنصوص في الإذاعة. أمضى ثلاث سنوات مدرساً للأدب العربي في جامعة طوكيو باليابان. عمل في صحيفتي الثورة والتشرين، رئيساً للقسم الثقافي. له مسرحية شعرية بعنوان «السيل» وتسع مجموعات شعرية منشورة هي: «دربُ الواحة» و«أنهارٌ من زبد» و«أعراسُ الهنودِ الحمر» و«مرايا لآخر المماليك» و«أسئلة للرياح» و«أطيافٌ من لياليها» و«نخلة اسمها فاطمة» و«برزخ للجنون» و«أبجدية الينابيع».[1]

يقيم الشاعر السوري علي كنعان في أبوظبي منذ تسع سنوات، ويسهم في تحرير مشروع ارتياد الآفاق الخاص بآثار الرحالة العرب والمسلمين. له عدة ترجمات كان آخرها: 1. يوم سادت الصين البحار «أسطول الكنز في عهد المينغ»، 2. فن الحب وقصائد حب للشاعر الروماني أوفيد، صدرا في مجلد واحد بعنوان: «قيثارة حب»، منشورات المجمع الثقافي في أبوظبي.

3. ظاهرة الاغتراب في شعر علي كنعان

3ـ1 الغربة المكانية

أول ما يبدو لنا في تضاعيف أشعار علي كنعان من الاغتراب هو الاغتراب المكاني، ما نقصده بالاغتراب المكاني في الأدب هو الإحساس بالشعور الذي ينتاب الشاعر عندما ينتقل من مكان إلى مكان آخر وينزح عن مسقط رأسه، وذلك لإنجاز طموحاته وتحقيق آماله، لذا يمكن أن يعيش الإنسان بشكلٍ عام والأديب بشكلٍ خاص بين أبناء شعب آخر ويراودهم ويعاملهم، لكنه يبقى بينهم منعزلاً وغريباً، لأنَّ الشاعر المغترب لا يرى منهم سوى الآلام والحزن وحالة من الكبت والمخاصمة ويصاب بخيبة الآمال، واصفاً الناس كالأشخاص الذين جرعوه كأس الموت والأسى فيضطر أن ينجو بنفسه من هذا التمرد السائد على المجتمع محاولاً الإتيان بأفكار وآراء جديدة لم يكن عهد بهذا تلك البلاد المغتربة فالارتحال عن الوطن يولّد «احساس الفرار من البيئة عند الإنسان، فيختار لنفسه بيئة أخرى يحيا فيها بروحه، ويحلّق في أجوائها بخياله، ويجد فيما يتصوره من فسيح رحابها متنفساً له، وعوضاً عمّا ضاق في بيئته التي يحيا

بها، والتي لم يعد له قبل باحتمالها». [2]

تُعدُّ نزعة الحنين إلى الوطن عنصراً أساسياً في شعر علي كنعان، فالشاعر يصور أرض الوطن ويتمنى في مهجره الرجوع إليها بحيث ينادي أرض وطنه بشكل عام ووادي بردى بشكل خاص، لأنَّها تحمل بين دفتيها كثيراً من ذكرياته الجميلة التي تساور كيانه، وكأنَّهُ يخاطبها وهي ماثلةٌ أمامه. تدل هذه النصوص الشعرية على مشاعر الشاعر المرهفة والتي هي متأججة بالعواطف المحتدمة، مما يبرز قدرة الشاعر على التعبير عن هواجس نفسه وانفعالاتها وهمومها، فهذا الحنين للوطن من جانب، وكثرة الشكوى والتضجر من جانب آخر ساعد الشاعر على أن يعطينا صورة جلية لذاته، فكأنَّ روحه هي التي تتحدث عن مرارة البعد وتوحّده بالمكان، وذلك من خلال مزج الذات بالموضوع، لذا اشتدّ في هذه النصوص شعور الشاعر بألم الغربة حتى ضاق صدره وطفح كيله، فحاول الشاعر علي كنعان التنفيس عن لوعة الفراق وآلامه وهمومه بأسلوب الإستفهام الذي يصور أماني الشاعر وآماله في زيارته لمسقط رأسه فيسأل وادي بردى ليعبر عن حنينه إلى أرض وطنه الحبيب قائلاً: متى تنتهي أيام الغربة لكي أعانقك؟ أو متى تلمس يداي حفنتي من تراب بلادي حتي ينتعش كياني من استنشاقي لريحها الطيّب؟

«يبست زوّادةُ المنفى .../ فهل أنتظرُ الغيمَ الذي تأتي به/ ريحُ الشمال؟/ بردى .../ يا بردى .../ يا برداه!/ متى .. متى .../ تحضنُ روحي في حناياكَ/ وتخفي سكراتِ لوعتي/ في عاصفٍ من الجنون/ أو حفنتيْ تراب؟». [3]

يعبّر الشاعر في النصوص التالية عن مدى توقه وشوقه وحنينه لوطنه متلهفاً بحيث أحسّ في منفاه بالغربة المريرة فامتلأ قلبه شوقاً إلى بلاده، وأهله وأصحابه، مما زاد حنينه للعودة إليها، لذا يحنّ الشاعر علي كنعان إلى بلده وأيام صباه التي قضاها مع أحبائه وخلّانه رفاقه، واصفاً ما مدى تفانيه في حبّ مسقط رأسه وعطشه لزيارة وطنه مرة أخرى. ثمَّ يتمنَّى الشاعر الخلاص من هذه الغربة، فيخاطب بعض الأماكن الموجودة في دمشق ومشاهدها الأخّاذة التي صارت بعيدةً عنه ويحنّ إليها بلهفة حنين الإبل إلى مأواه، ولكن في الوقت نفسه الشاعر يعلم أيضاً أنّ كلّ هذه المحاولات لا طائل تحتها، لأنّه قد فات الأوان ولم يبق من هذه الذكريات الجميلة التي تبدّت في مخيّلته وعاشها في دمشق سوى صوراً من أيّامه الماضية.

«بردى أُغنيةٌ في البالِ/ وادي بردى، كيوانُ، ساروجا/ مقاهي قاسيونَ/ ... بابُ توما، ساحةُ المرجةِ، بابُ الجابية/ تشعلُ الذكرى تباريحَ الغروب/ لم يعد فردوسُك الشاميُ/ إلا صوراً أو خطراتٍ من رماد/ تتهادى في لياليهنَّ أطيافُ الأحبَّة/ وينام القمرُ الورديُ فيَ قاعِ الغياب». [4]

ومما يتبيّن من هذه النصوص الشعرية هو أنّها تتمحور حول ما عاناه الشاعر من الحزن ولوعة الفراق والوحدة وسلوك المواطنين السَّيء، و من هذا المنطلق اختلط اغترابه المكاني بالشكوى من جور الدهر، واصفاً أحاسيسه التي هي متضاربة وغير متوافقة مع هذه البيئة التي أخذت راحته ورفاهيته، وكما يتضح لنا من خلال قراءتنا لهذه الأشعار أن الشاعر علي كنعان مُحبّ للوطن والسلام، ويرجو تحقيق آماله المنشودة:

«لم أَنمْ .. كنت وحيداً/ والسكون العنكبوتيَ يغشيَّ عالمي/ ناسجاً حوليَ تابوتاً جليداً/«من أنا؟» غمغم شيءٌ خلف حسّي/ ... إنني أحيا كفأرٍ جائعٍ في مصيدة/ سمِّها - إن شئت - غرفة!». [5]

كما أسلفنا قد شغل الإبتعاد عن الوطن حيزاً واسعاً في شعر علي كنعان، فالشاعر السوري لا يزال يتذكر بلدته واصفاً أيامه الحلوة التي قضاها فيها بحيث صار اغترابه المكاني قضية مصيرية تركت بصمات واضحة على نفسه وشعره، لأنّه بثّ في كوامنه ألم الفراق والوحدة. قد عبَّر هنا عمّا لاقى من الحزن والأسى في البلاد المغتربة لأنَّ الشاعر يعتبر أنَّ الناس في هذا المجتمع لا يطابقونه قولاً وفعلاً. يلعب الوطن دوراً محورياً وبارزاً في هذه النصوص الشعرية بحيث يحاول الشاعر التنفيس عما عاناه في المنفى من البطش والنفاق والغشّ:

«الياسمين في دمشق يرفض الرياء/ الياسمين في دمشق .. ما له وجهان/ فعندما يحب../ يطل من أسيجة الدور بلا وجل/ وينشر الأريج/ على ضيوف الشارع المحروم». [6]

يتضح لنا من خلال هذا النص أنَّ الشاعر قضى ردحاً من الزمن في الصراع المحتدم والمرير مع الحياة، مما أدى إلى ظهور لون من ألوان «الأنا» الذي يقابل «الآخر» في نسيج أشعاره، فلابد أن يحسّ بالغربة ويشتدّ حنينه وتهيج ذكرياته، لأنَّ الشاعر لم يستطع التلائم والانسجام مع الناس في المنفى لذا يتمنى الهروب من هذا المجتمع الذي يتسم بالخداع والكذب، مما أدت هذه المجريات برمّتها إلى ظهور حالة انفصال في نفس الشاعر عن أبناء المجتمع الذي لاقى منهم المصائب والويلات والإيذاء، لذا زيارة الوطن وضمّ حفنة من تراب البلد هو الأمل الوحيد الذي ملأ كيان الشاعر بحيث كانت النغمة الوحيدة التي تعزفها قيثارة نفسه المجروحة من لوعة الفراق هي نغمة الحنين إلى أرض الوطن:

«ومثلما نطيرُ في مواسم الطفولة/ على بساط الغيم أو أُرجوحة الضياء/ من أرجوان أفقٍ مشتعلٍ في أول المدى/ إلى رماد أفقٍ معتكرٍ في آخر المدى/ نودّ لو تَشيلُنا تحت خوافيها ../ نرسمُ في ترحالنا ألفَ مدارٍ/ ومدار». [7]

فقد ارتحل الشاعر علي كنعان من وطنه إلى بلاد الغربة وهو لا يملك سلاحاً غير سلاح الشعر، لذا لعل أول ما يمكن أن نقف عليه من مظاهر الاغتراب في شعره هو الاغتراب المكاني. فالشاعر يشير هنا إلى تنامي الشعور بالإخفاق وخيبة أمله للرجوع إلى أرض الوطن، ولكن حنينه لا يزال موصولاً بوطنه الذي تركه، وأحبائه الذين فصل عنهم، واصفاً هروبه من حاضرٍ قاسٍ عزله من بلده الحبيب وأهله؛ فلم يجد الشاعر مخرجاً ومنفساً للأشجان المنطوية والآلام المكبوتة والمشاعر الدفينة غير الشعر:

«**لهاث الريح يخطفني إلى أرض الطفولة/ ثديُ أمي ناشف .. طار الندى،/ يبست حليمات الندى قبل انحسار الغيم/ ... وأبي يحدق في سماء تشتهي موتي/ يُخوِّض في رماد كاد يبلعه**». [8]

الحنين إلى الوطن من الفنون البارزة عند الشاعر السوري علي كنعان. ومن مميزات شعره في هذا القسم هو أنَّ الشاعر عبَّرَ عما يدور في سويداء قلبه من خلال لسان حال شخص آخر. ومن هذا المنطلق يشير الشاعر المغترب إلى ما انتابه من الوحدة والوحشة والسقم والحزن، بحيث تغلبت فيه روح العاطفة الوطنية واصفاً نفسه من لوعة الفراق كالميت الذي هو داخل تابوت، و ذلك من خلال استخدامه لبعض العبارات التي توحي هذا المعنى كـ«المقبرة» و«السهوب المقفرة أو الجلفة»، لذا الشاعر يحاول أن ينجو بنفسه حتى يأمن من الأذى ويستريح باله، ولكن في الوقت نفسه لا طائل تحت مساعيه:

«**يقبلُ الليلُ ويسترخي/ غراباً هرماً في مقبرة/ لم يكن سربُك معتاداً/ على جوِّ السهوب المقفرة/ فاعتكفْ داخلَ تابوت هلاميّ/ من الشعر/ أو أهربْ عبر أبواب السماء/ علَّ أطيافاً من الشام توافيكَ .../ ترُدُّ الروحَ/ أو تحنو على القلبِ الكليم**». [9]

و مما لا غبار عليه أن حب الوطن يعتبر من المحاور المهمة في شعر علي كنعان، بحيث يرتبط الشاعر بالمكان الذي نشأ فيه وترعرع ارتباطاً وثيقاً، فالشاعر يرغب في خلق وطن مع كلمات لتنمو كل مظاهر الطبيعة فيها. يختار الشاعر علي كنعان من مظاهر الطبيعة ما يلائم نفسيته المغتربة، فهو يختار من مظاهرها ما يعزز اليأس واغترابه عن الوطن في نفسه، ليحيا في وطنه بروحه، ويحلّق في أجوائها بخياله. ففي هذه النصوص الشعرية يصوّر الشاعر حزنه ووحدته ومأساته من خلال تصوير حقول الشاي في هذا المنتجع السياحي التي تذكّره بشذى رائحة هذه النباتات المُعَطَّرة في بادية الشام، وذلك ليجد فيما يتصوره من فسيح رحابها متنفساً له، ولكن سرعان ما تنقله هذه الصور التي ينتزعها الشاعر من جمال الطبيعة والحياة إلى عالم الكآبة والاغتراب، واصفاً الذكرى وحدها نصيبه من هذه الطبيعة الخلابة:

«**يرمح الدربُ إلى «إيزو»[10]/ على زيقِ الخليج/ وحقولُ الشَّاي/ تستدعي أريجَ الشيح/ في بادية الشام/ هل الذكرى ضناك الأبدي؟**». [11]

وكما أسلفنا يُعدُّ المكان من أهم المكونات الفكرية والنفسية لدى الشاعر، لذا قد عبّر الشاعر علي كنعان عمّا فعل به الدهر من مرارة البعد والنوى، فيزداد الشاعر في قلقه واضطرابه وتوقه إلى وطنه الحبيب لأنَّه يجد نفسه عاجزاً ضعيفاً لا ناصر له ولا معين أمام الدهر الجائر، لذا تمكن الشاعر من أن يصور مدى اغترابه وما عاناه من ويلات وجور وسخط من أهل زمانه وذلك من خلال استخدامه للتعابير المشحونة بالصور الحيّة دون أي زيادة وحشو:

«**كيف أبني من هشيم الروح،/ من أوشال أيّامي لنا .../ أو للوعول الشاردة/ وطناً أو خيمةً وحدي/ ولا من صاحبٍ أو سندٍ/ إلا مرارات شجوني؟**». [12]

ومما يجدر بالذكر أن أشعار علي كنعان الوطنية تحمل بين طياتها أروع وأجود ما نظم في حياته الشعرية، فإذا أمعنا النظر في هذه الأشعار الاغترابية نجد بأنَّ الشاعر تتغير أحواله وينفذ صبره، واصفاً نفسه نهراً هزيلاً مهترئاً بعدما كان كاللجَّة اقتداراً في عنفوان شبابه، فالشاعر من خلال استخدامه لبعض العبارات كـ «نهرٌ يتيمٌ» و «جرَّتني» أراد أن يعبّر عما ساوره في الشيخوخة من ضعف وآلام وحسرة ولوعة الفراق وحنين وشوق إلى أرض وطنه الحبيب، لذا الشاعر بالرغم من محاولته لإخفاء لوعة الفراق وشوقه لم يقدر على ذلك، فنرى أنَّ الشاعر علي كنعان يستخدم الألفاظ والمعاني التي تدل على عمق حنينه:

«**يا حريَّةَ البحر العظيم/ فأنا نهرٌ يتيم/ كان قلبي موجةً في بردى/ يوماً/ وروحي جُبلت من ياسمين الشام/ لكنَّ رياحَ الليلِ/ شدَّتني بعيداً عنكِ/ جرَّتني إلى قاعِ الجحيم**». [13]

2_3 الغربة الزمانية

«يشعر المرء في هذا النوع من الاغتراب بأَنَّ الزمان تغيّرت ملامحه عليه، ولم يعد يعيش في الزمان المثالي الذي ألفه واعتاد عليه. ذلك لأَنَّ كثيراً من الأعراف والتقاليد قد تغيّرت وطواها النسيان، فلمّا كان العهد السابق حافلاً بالخيرات حسب وجهة نظره، يتذكّر ذلك الماضي بشيء من الحسرة والألم». [14]

يُعدُّ الاغتراب الزماني من أبرز مظاهر الاغتراب عند الشاعر علي كنعان، فالشاعر يشكو قسوة الحياة و يتضجر من زمانه القاسي الذي أدى إلى تهاويه في قاع الإخفاق، بحيث مزّقته تعاقب الأحزان والإحباطات والإخفاقات، و جرحته الأيام وتناساهُ الأصدقاء والأحباب، لذا ليس فيهم فاضل ولا كريم لأنَّهم يتنعمون بعيشة راضية ولكنه يكابد الآلام في حياته، فتوجع الشاعر منهم توجعاً مضَّاً، ومع ذلك يتمنى أن يستعيد ماضيه المفعم بالنشاط والحياة:

«**أمس انتصرت علي الحياة/ حتى الهواء حبسته طيَّ القوارير الحديد/ واليوم ينتفض الربيعُ الطفلُ/ من تحت الجليد/ الويل لي!/ عادوا وهم يتنفَّسون/ فالخزي، ريح الخزي تجلدني/ تعرِّيني .. وهم يتنفَّسون**» [15]

يشير الشاعر في هذه النصوص الشعرية إلى حياته الحزينة الكئيبة، بحيث قد حرمه الحزن وقسوة الحرمان من أن يتمتع بروعة الحياة وجمالها؛ وعلى الرغم من الآثار السلبية التي يتركها الحزن في نفسية الإنسان إلّا أنّ دواهي الدهر فقد أفقدته الإحساس بالحزن والملمات، فعمرهُ يمرُّ سنة بعد سنة من غير أن يعانق الفرح والسعادة، لذا مهما حاول الشاعر أن يفلت من إسار روحه الكئيبة والقلقة والأحزان الكامنة في نفسه إلّا أنّ محاولته تبوء بالفشل؛ ومن هذا المنطلق فإنَّ الشاعر لم يحسب لهذا الزمن حساباً، ولم يعد يهتم به أو يخافه؛ وكأنَّهُ أصبح يعيش خارج زمنه:

«**تملأ الدنيا أراجيحَ وطيبْ/ فتعلَّقت بغصنٍ أيّ غصن!/ وعبرت الباب في ثوبٍ قشيبْ/ ناسياً قسوةَ حرماني وسجني**». [16]

إنَّ أزهى صور التوق إلى الماضي ما انطوى على عالم طفولة الشاعر، وذلك لما تحمل أيّام طفولته من وداعة ونِعَم ورَغَد، ولكونها بعيدةً عن مشاكل وملمات الحياة الشاقة، فيتذكّر الشاعر في هذه النصوص الشعرية عالم طفولته البهيج والحافل بأنواع الخير والبركة، محاولاً التمسك بأجزاء الذكريات واستحضارها بديلاً عن اللحظة المعاصرة:

«ها هنا فتّحتُ عينيَّ على صدرٍ رحيم/ في دمي يسكبُ، في روحي، رضاه وحُنوَّه/ وهنا أختي تناغيني، وليلى تتثنّى/ وأبي ينحرُ للضّيف/ ويسقي صحبَه السمَّارَ قهوة/ وبما أهوى ربابي يتغنّى». (17)

استحضر الشاعر في النصوص التالية ذكرياته على وجه التشوق إلى زمن ماض ترتبط به نفسه. يلوذ الشاعر بالشكوى من نكد وقسوة الواقع ونوازل الدهر ونوائب الأيام، ويندب سوء حظه وحاله، مشيراً إلى هذه القضية بذمه يوم الفراق لأنَّه أدى إلى تفاقُم حالته المأساوية. أضفى الشاعر علي كنعان على هذه النصوص جواً من الحزن والألم، يزاوج فيه بين التحسر على أيّامِهِ الماضيةِ والتَلهُّف عليها، وبين مرارة الإخفاق في الحاضر التي حالت دون وصوله إلى أحلامه الكبيرة ومبتغاه، مما أدت هذه الأحداث برمّتها إلى تفاقم المأساة وتبدد الآمال في باطن الشاعر.

«عرسُنا .. ماذا عن العرس الجميل/ كلُ أيامي سالت معها عرساً طويل/ غير يوم!/ لا رعاك الله، يا يومَ الرحيل/ وغزتنا من وراء الغيم، من خلفَ الأفق/ بومةٌ تنعَى علينا أن نعيش/ في البراري كالوحوش» (18)

يتبيّن لنا من خلال إمعان النظر في ثنايا هذه النصوص أن الشاعر علي كنعان لم يبقى أمام مرور الزمن والصراع المحتدم بين الإنسان والدهر مكتوف الأيدي، بل انتفض على واقعه المأساوي لأنَّهُ يأبى الحياة الذليلة لأهل جلدته. لذا وكما أسلفنا يتحسر الشاعر على فقدان تلك الأيام الماضية، مذكراً في هذه النصوص الشعرية ما حلَّ بأبناء وطنه من الضعف، والونى، والفتور والويلات، بحيث ازدادت غربة الشاعر عندما يحسّ بدنوّ أجل أبناء جنسه بسبب ضنك العيش وواقعهم المأساوي الأليم والخطير الذي لم يستطيعوا التخلص منه:

«وشفافهم زرقٌ مشققةٌ كبالية النعال/ وعيونهم ـ غرثى كأفراخ الدجاج/ بين المزابل والغلال ـ/ فوق الرصيف وعبر أبواب الزجاج/ طولَ النهار../ مدَّ النهارِ وليس من قوتٍ/ ولا داعٍ، ولا حتى ظلال!». (19)

يرى الشاعر أنّ هذا العصر الجائر عدوه اللدود الذي يريد شقاء وطنه والإيقاع به، بحيث لا يرغب أبداً بالمسالمة، فأشار الشاعر علي كنعان إلى نوائب الدهر وصروفه ودواهيه المفجعة التي أذاقَ شعبه المحن وأحلّ به الملمات والمصائب، فيصف الشاعر زمانه الذي أرى وطنه المكارهَ، وفي الوقت نفسه يتمادى في العداء والخصام:

«فخشيتُ أن الأرض قد تتزلزلُ/ أو أنّ سقف بلادنا يتفتتُ!/ أُمٌ تخلّت عن بنيها الجائعين/ إذ لم تجد في بيتها ما تأكلُ/ وأبٌ تقوّس ظهره تحت السنين/ كالهيكل العظميّ، روح يحتويها هيكلُ/ وصبية سمراء .. يجهش قلبها القلق البريء/ كحمامة زغباء تنبش في جيوب القطب/ عن عش دفيء». (20)

شكا الشاعر علي كنعان من زمانه الحاضر الذي تكبّد منه بشتى أنواع الملمات والمصائب، لذا تبرم من هذا الزمان المرير وصب كؤوس غضبه على هذا الدهر اللئيم، بحيث وجه إليه أصابع الإتّهام ورماه بسهام الشتم والسب؛ ومما يسترعي الانتباه هو أنّ التضجّر من الدهر لا يقتصر على هذا الشاعر، بل نجد المغزى نفسه لدى الأغلبيّة الساحقة من الشعراء:

«ألعنُ هذا العصر/ ألعنُ نفسي مثلما ألعنُ هذا العصر/ لأنني ولدتُ فيه/ كالشاهد الجبان../ لم أستطعْ تبديلَ شيءٍ فيه/ يا وطنَ الإنسان والحضارة/ بكلِّ ما في القلبِ من غيوم/ وكلِّ ما في الجوِّ من رياح/ يا وطني .. أبكيك». (21)

تعاقُب الإخفاقات والإحباطات وتوالي المحن والأزمات نتيجة المرارة والخيبة أدت بالشاعر إلي تغير رؤيته للزمان، بحيث شكلت في نفس الشاعر بؤرة اغتراب حادة تتدفق في إبداعه الشعري نغماً حزيناً، فالشاعر يشير في هذه النصوص الشعرية إلى انفصاله عن الزمان، لذا استوت عنده الحياة والموت، والفرح والترح، فأنشد الشاعر علي كنعان في هذا المضمار وهو يتمزق من الداخل قائلاً:

«لا خوفَ بعد اليوم يا زمانَنا الأجرب/ لا خوفَ من جوعٍ ولا فقرٍ ولا مرض/ فأمنا الحنونُ أمريكا/ ودون أيّ منّة ولا غرض/ تسدّ ما نحتاجه بالعملة الصعبة/ وإن يكن معتصراً/ من دمنا وغدنا الأصعب». (22)

إنَّ الشاعر علي كنعان في هذه الحقبة الزمنيّة التي قضاها في البلاد المغتربة مَرَّ بظروف قاسية ومريرة تختلف عما قضاها في وطنه، فهناك تطمئن روحه القلقة والمضطربة المشبعة بالاغتراب، ففي تلك العزلة الطويلة ظلّ يتذكر أيامه السعيدة والجميلة التي قضاها مع أحبائه وأصدقائه وأسرته. عالم الطفولة هو عالم محبب إلى هذا الشاعر المغترب وذلك لأن لم تسود صفحته الأحزان والآلام؛ فكان لهذا الواقع المؤلم أثر بالغ في شعر علي كنعان بحيث أثقلت الأحزان كاهله وأخذ الاغتراب بخناقه، فنراه يسترجع الأيام المنصرمة التي هي مليئة بالصور المضيئة والمشرقة المقترنة بالطهر والصفاء، والذكريات العذبة التي يعجز الزمن الحاضر المشحون بالصور العابسة من أن يمحوها من ذاكرته لأنَّها نبرة صادقة من عالم الطفولة البهيج:

«رسالةٌ حروفها مقطوفةٌ من كوكب الطفولة/ كلُ نعيم خلفها جارٍ بلا حدود/ وكلُ من يقوى على الولوجِ في أسرارها/ مفقودُ/ لا ترحلي عن شاطئ الأحلام/ يا سفينة الخلود/ ولتحضني بدفئك الكونيّ/ قلبيَ من برودة الأيّام». (23)

ومما يجدر ذكره هو أنَّ الأحاسيس القاتمة الكامنة في نفس الشاعر سرعان ما تغمره عندما ينقطع عنه تيّار الذكريات السعيدة والجوّ الرائق الذي يَجلبُ المتعةَ، لذا يستقبله الواقع

الكالح بوجه عبوس وكريه، وهكذا تقترن الحلاوة في شعر علي كنعان بالمرارة، بحيث يصف الشاعر معاناته من ملمات الزمن الحاضر مسترجعاً الأيام التي اندرجت في الزمن الماضي، ولكن من المستحيل أن يعود الزمان إلى الوراء، فكيف يصحُ القصدُ إلى المستحيل؟!؛ ومن البارز أنّ بالإضافة إلى ما في هذه النصوص من النزوع إلى الأيام الماضية والتمسك بها فإنّنا نلمس وبشكلٍ جلي فيها شعوراً مريراً بالحزن والأسى من واقعه المؤلم واحساساً بالغربة الزمنية، فالشاعر يصوّر لنا في شعره حياته التي لم يتبقى منها سوى الذكريات السعيدة التي قضاها مع أحبابه بحيث يمزج الشاعر علي كنعان بين ذكرياته وهلعه من حركة الزمن. فيشير الشاعر في هذه النصوص الشعرية وبصورة مباشرة إلى الفناء وبالتحديد الموت، ويتحدث عن احساسه الحاد بحركة الزمن القاسي التي ستمضي به كما مضت بذكرياته الحلوة وأصدقائه وخلّانه السابقين، وتنتهي به إلى الموت والفناء:

«دار أمي وأبي يغمرها النسيانُ/ في بادية الشيح/ ويطويها زمانٌ يتباهى بالفساد/ كيف تحتالُ على الموت/ وتغشاني؟/ ولا عنوانَ للمنفى/ سوى ذاكرة الرمل/ وموّال الحصاد». (24)

وبذلك فإنَّ الغربة الزمانية عند علي كنعان تتمثل في توقه وتشوقه للأيام الماضية على وجه التخوف من الأيام الآتية وحركة الزمن تارة، وعلى وجه الشكوى من أخلاق معاصريه من أبناء جلدته، وما آلت إليه أخلاقهم، وسلوكهم، وعاداتهم تارة أخرى.

3ـ3 الغربة العاطفية

الإغتراب العاطفي الذي يُراود الشاعر علي كنعان هو أكثر جلاءً ووضوحاً في النصوص التالية؛ حيث تجري على لسانه كلماتٌ ملؤها الآهات، والزفرات والاضطرابات، إذ إنَّه لا يجد من أحبائه سوى الفراق، بعد أن كان يرجو منهم الوصال؛ فقد كان لهذه المجريات برمّتها أثرها المؤلم في نفس الشاعر، الأمر الذي جعل الشاعر يتمنّى العودة إليهم:

«آه .. ما زلت هنا سهرانَ وحدي أتململ/ ورفوفُ الكتب البلهاء مثلي تتململ/ وعيونُ الليل حولي تتململ/ فتذكّرت أبي، أمي، وبعض الأصدقاء/ مات في أعينهم وجهي وما ماتوا لديَّ/ نارهم تنبش أيّامي وتجتاح دمي دون انطفاء». (25)

عبَّر الشاعر أيضاً عما يجيش في ضميره من الإحساس بالخيبة العاطفيَّة في الحبّ. فينفطر قلب الشاعر حزناً وألماً من حبيبته، وذلك لأنَّها ليست على طور ثابتٍ فلا تستقرّ على حالةٍ واحدةٍ، بل هي تُري المحبّ في كلّ لحظة حالةً جديدة؛ لذا ترغب تارةً في الوصال وتُبادر إلى القطيعة زمناً آخر. والمحبّ المسكين يتحمّل في كلّ هذه الأطوار الغريبة الأعباء الثقيلة التي لا تطاق من جانب الحبيبة؛ فهذا التصرّف القاسي الذي تُبديه الحبيبة يملأ قلب الشاعر حزناً وكمداً ويجعله حيرة من أمره:

«يا دروبَ السهد لن أنسى لياليك الحزينة/ وأنا من حَرِّ أضلاعي ومن زَغب المنى أبني السفينة/ وهي تلهو، قطةٌ بيضاءُ، من دارٍ لدار/ ... خلّها يا نوحُ للأمواج فالشطآن ملأى بالمحار/ وبلا وعدٍ بلقيا أو سكينة»(26)

يرى الشاعر علي كنعان الأُمَّ مشحونة بالرقَّة والعذوبة الرومانسية، فالأُمّ وحدها تعطي ولدها نوراً يهتدي به في طُرق الحياة الشائكة والوعرة؛ فأنشد الشاعر قائلاً:

«فما أنا إلا كما أنت يا صاحبي/ أشتهي أن أنام طويلاً على صدر أُمي/ بلا مقرئ أو بخور/ أتمنحني كرفاق الصبا/ فسحة في جوارك؟/ أتأذن لي بالعبور؟!». (27)

يُظهر الشاعر علي كنعان حزنَه المكنون في قلبه حين طروء التوق والحنين إلى الأهل والأصدقاء، بحيث ينقادُ الشاعر لعاطفته وذلك لما توالت على الشاعر من ملمات رقّقت نفسه إلى أبعد حدّ واتّقدت. ومما يسترعي الانتباه هو تجلي الأمل والخيبة كعنصرين مختلفين في قصائده، ويعتبر من خصائص شعره العاطفي، وله عدة نصوص شعرية في هذا الباب، منها:

«تبدأ الغربةُ/ من سوسنةٍ في أرجوان القلب/ تنشقُّ إلى نصفين:/ نصفٌ يحضنُ الذكرى بإشفاقٍ/ ويرجو لكَ ألا تفقد الرؤيا/ ونصفٌ يتهاوى/ في شعابِ الليلِ/ آلافَ الشظايا». (28)

الغربة العاطفية التي يعيشها الشاعر واضحةً كلّ الوضوح في هذه النصوص الشعرية. يؤكد الشاعر علي كنعان هنا على معاناته وعذابه بعد فراقه عن محبوبته التي أحسّ بالغربة والوحدة بعدها، لذا يتخيل نفسه منفرداً كاطائر في وادٍ غريب، لا صاحب فيه ولا أنيس وهو محاطٌ بالأشجان والأحزان، فنسمع زفرات الشاعر الذي يشكو من صدمة روحية تنتابه إثر فراق الحبيبة. بعثت هذه الغربة في نفس الشاعر حالة من الكآبة والحزن إلى درجة يشعر بأنّ آماله قد خابت برمّتها، وأنَّ التمني في الحبّ ليس سوى خدعة وغرور:

«يا ريحانةَ العنبر/ لاتتركيني طائراً مستوحشاً/ تلوكُه مجاهلُ الغربة والحرمان/... لا تنفري من عاشقٍ/ طارت به لواعج الحنين/ ... هاتي يدَ القلبِ اشبكيها في يدي/ ميعادنا المكتوب في سرائر القهوة/ ... رشّي دمي على فراش الليل/ حتى يشعل التّنورَ في الأوصال/ ولا رجاءَ بالوصال/ ولا قرارَ يُرتجى في غابة السكارى/ لا أهل، لا أصحاب، لا أمان/ لا حبَّ، لا مأوى .. ولا سكينة». (29)

هذه الخيبة العاطفيّة في حياة الشاعر تنعكس في شعره بوضوح، فالشاعر أحبّ حبيبته حبَّاً صادقاً، ووقعت محبّتها في قلبه، بحيث بقي حبّها في مخيّلته ولم يفارقها، فالشاعر عندما كان في المنفى عاش فترةً من حياة العذاب والحيرة والحرمان، لأنَّ محبّتها نُقشت في قرارة نفسه وعانقت نياط قلبه:

«أبعد الخمرةَ، يا ساقي/ ودعْ لي فارغاً هذا القدح/ علَّني أُودعُ فيه من شجوني ما طفح/ صخرةٌ تغفو على قلبي/ و خفّاش هوى ينهش من لحمي/ وعيناها بحارٌ من فرح/ لم تكن يا صاحبي بين طيور الليل/ إلا شبحاً». (30)

الشاعر علي كنعان يعطينا أيضاً صورة جليّة عن الواقع المؤلم الذي عاشه في المنفى بعيداً عن حبيبته وقد اشتدّت عليه وطأة الوحدة، ومن هذا المنطلق حرمه لذة الحياة والتمتع بجمالها، وجعله وحيداً كئيباً حزيناً يقبع داخل جدران المنزل بحيث لا يمكن أن يحرّر نفسه، كما يقبع السجين في زنزانته الرهيبة، و يقول الشاعر مصوراً قسوة لوعة هذا الفراق وأثره:

«أيُّ عيدٍ موحش الساعات/ يغشاني بعيداً عنكِ/ يا خمرَ انخطافي وجنوني/ أتشهّى لوثةَ المحموم في إعصارِكِ الغالي/ ولكنْ،/ دونه تنهض أسوارُ المنافي والسجونِ». [31]

يعبّر الشاعر أيضاً في النصوص التالية عن مدى حنينه لحبيبته وآلام الغربة المفجعة التي أتقدت حشاه وأثرت في نفسه تأثيراً بالغاً، حتى البكاء لم يَعُد يجديه نفعاً، فيصف الشاعر علي كنعان ملامح وجهه عند الضحك بأنّها تدلّ على هواجس نفسه وخلجات روحه الحزينة. أشار الشاعر بألفاظ رقيقة سهلة وأساليب إنشائية لاسيما أسلوب الإستفهام إلى عمق حزنه المبرح وآلامه الدفينة. وقد بلغ الشعور الإغترابي لدى الشاعر درجةً تمنّى فيها الموت بحيث لم يرَ في الحياة بصيصاً من نور الأمل؛ وهذا الظلام الذي خيّم على حياة الشاعر هو ناجمٌ من نفسه الكئيبة التي تزاحمت فيها الأحزان والأشجان، فأنشد الشاعر بتوجع كبير قائلاً:

«أهي على ضفاف بردى أم دجلة؟/ أرثي لمن لا يدركون ما وراء ضحكي/ أبكي لأني لم أمتْ/ كما يموتُ شجرُ الزيتونِ في غزّةَ أو جنين/ أبكي من الحظّ وما لهُ من كيمياء». [32]

4_3 الغربة الروحية

حينما نذكر الاغتراب الروحي نقصد به «تلك الحالة التي يشعر به الفرد بانفصاله من ظرف إنسانيّ مثاليّ، فيتطلع إلى الانعتاق من العالم المحيط به إلى عالم من صنع نفسه». [33]

الشاعر علي كنعان يشعر بأنّهُ غريب في هذا الكون، بحيث لا يجد ما يشفي به غليله الروحي وما يتجاوب مع ما يجول في ذهنه من أُمنيّات وآمال، وقد كان لهذه الأحداث أثر بارز في نفسه، إذ أحسّ بمرارة البُعد، ولوعة الفراق وأوجاع العزلة، فأدى به الأمر إلى أن يشعر بالغربة الروحية العميقة وقمّة التيه والضياع التي نراها بشكلٍ جلي في النصوص التالية:

«وارتمت عيني على الحائط صدفة/ فاعترتني رعشةٌ باردةٌ حيرى/ كموسيقى جنازة/ وكأمٍّ فقدت كلّ بنيها/ كدت أبكي». [34]

الشعور الذي يتولّد من حالة الغربة الروحيّة هو الخوف والهلع من الوقوع في التيه والضلال في هذا العالم الرَّحيب؛ كما أنَّ الشاعر علي كنعان يتخيل نفسه شخصاً تائهاً لا يعلم مصيره، فلا يكاد يرى أمامه مكاناً مطمئناً آمناً يلوذ به:

«لا درب لي/ لا سقف يفرش ظله حولي/ و كابوس الهجير/ كرماد منفضة الخريف/ من أين؟ .. لا أدري/ ولا أين المصير!». [35]

يعبّر الشاعر في هذه النصوص الشعرية عن غربته الروحية في أجمل تعبير، آخذاً بنظر الإعتبار أنَّ غربته ليست غربةً عاديَّة يعيشها أي إنسان غريب يسكن خارج وطنه بعيداً عن أحبابه وأقاربه، فخفَّف الشاعر في النصوص التالية عن مكانة الجسم واستهتر به؛ ومن هذا المنطلق يصرّح الشاعر علي كنعان هنا عن خبايا نفسه، قائلاً بأَنَّهُ لا يبحث عن الأصحاب بوصفهم أجساد، لأنَّ الأجساد سرعان ما تتلاشى وتزول بَيدَ أنّ الروح تبقى باقيةً خالدةً، لذا ظهر الاغتراب النفسي في نماذج متعددة من شعره الذي بين أيدينا:

«ويصيح بي من حبسه الذهبيِّ تمساحٌ بليد:/ «ماذا تريد؟»/ :ـ أنا؟ ما أنا حتى أُريد؟!/ يا سيِّدي، لا شيء .. لا أدري/ أُفتّش عن صديق/ حيٍّ .. وأين الحيُّ؟!/ أبحثُ عن طريق/ عن منفذٍ لأفرَّ من هذا الحريق». [36]

ومما يجدر بالذكر هو أنَّ الشاعر علي كنعان يتفوّه بكلماتٍ تعكس نظرته السلبيّة تجاه العالم، وهي أَنَّه لم يجنِ من هذه الدنيا ولم يربح فيها سوى الظلم والبؤس، وذلك لما رُزئَ به في حياته من أهوال ومحن؛ والمعنى الذي نستنبطه من الشعر التالي هو أنَّ الشاعر علي كنعان آنس بحقيقة روحه منه إلى هذا العالم الحسّي:

«مغلّقةٌ كوى بيتي/ فما بي حاجةٌ للنور../ هنيهاتٍ .. وأبحرُ كالصدى عن شاطئ الزمن/ ولا من مرفأ، لا شيءَ يربط ها هنا سفني/ ... سيولُ العتمة الصفراء تبلعني/ وتغرقُ بالسواد المرّ يومي، بالأسى الضاري/ وتغرقُ بالثلوج غدي/ ولا شمسٌ تحرّرني». [37]

ويستمر الشاعر علي كنعان في طرح الهموم النفسية مكرراً في لقطة أخرى من أشعاره نظرته السلبية عن العالم وانزواءه عن غوغاء الحياة وضوضاء المجتمع انزواءً روحياً يحكي عن الغربة النفسيَّة لدى الشاعر، وذلك لما مُني به من حرقة التغرّب ولوعة الحرمان، والشعور بانفصام عُرا الأُلفة مع الناس والعالم المحيط به:

«إلهةَ العالم/ ولتغرقِ الأرضُ التي نطعمُها أجسادَنا/ ولتغرقِ الكواكبُ المجاورة/ بالدمِ والأفيون!». [38]

إنَّ الشاعر علي كنعان يتألم نفسياً إزاء غربته، وتتداخل لديه انفعالات القلق، والإضطراب، والإحباط، والحيرة، وشدة التوق والحنين إلى الأهل والأحبة، وهي أحاسيس تبدو متداخلة ومعقدة يحاول الشاعر من خلالها وصف ما ذاقهُ من ذلّ وأوجاع الغربة، ومرارة البُعد، وانكسار النفس ووحشة الروح:

«وجعٌ في لُبِّ كُمَّثرى دمي/ وشظايا من زجاجٍ في جفوني/ بومةٌ تنقر في رأسي،/ خفافيشُ تنوشُ القلبَ،/ غيمٌ يخطف الروحَ/ إلى تيه الظنونِ/ وقطيعٌ من ذئابِ الليلِ/ ينقضُّ على واحةِ أحلامي/ ويغتالُ بحيراتِ سكوني». [39]

5_3 الغربة الاجتماعية

المراد بالاغتراب الاجتماعيّ هو انفصال الإنسان عن المجتمع أو عن الآخرين أو عن القيم والأعراف السائدة فيه أو عن النظام

السياسي وما يعقب ذلك من الشعور بالألم والحسرة والفراق أو بالتشاؤم والقنوط وما ينطوي عليه من سخط أو ثورة أو نقمة وتمرد.[40]

عبّر الشاعر علي كنعان في أصدق صورة عن تشوّق أبناء جلدته إلى بناء عالم نموذجي، وذلك لأنَّ هذه القيم والأعراف السائدة في المجتمع أفقدت الرغبَّة في الحياة حتى عند أبناء جنسه وتشعرهم بضعفهم وانسحاقهم وعجزهم، كما تجبرهم على أن يعيشوا واقعاً مؤلماً غير راضين عنه وغير قادرين على الاندماج فيه؛ فعلى الرغم من أنَّهم يشعرون بتحطمهم وانسحاقهم وانهزامهم داخليًّا إلا أنَّهم يتحدون هذا الواقع المؤلم ويحاولون أن يتجاوزوه:

«ويزحفُ النهارُ في تثاؤبٍ بليد/ على أُناسٍ من رخامٍ/ يرقبون بعثَك المجيد/ سماؤهم حالت إلى دخانٍ/ وأرضُهم رماد».[41]

تظهر بين الحين والآخر زفرات الشاعر وهو يشكو ويتذمر عجزه من التكيف مع البيئة الاجتماعية، مشيراً إلى عدم وجود الصلات العاطفية بين الأفراد ومعاناة أبناء جنسه من الملمات إثر الفساد الذي انتاب المجتمع، وقد يحدثنا الشاعر علي كنعان عن شعوره بالإحباط، والإنعزال، وواقع حياته المرير وتحطم آماله المنشودة:

«غريباً كنتُ في أهلي وأحبابي/ بلا جذرٍ، بلا ثمرٍ، تغوصُ عرائشي في تربةِ الزمنِ/ وألفُ غمامةٍ موبوءةٍ أدهى من الكفنِ/ فيا لهفي ../ أأنسى كم تقاسي قريتي السمحاءُ من شظفٍ/ وكم قاست من المحنِ؟!/ أأنساها؟».[42]

الاغتراب الاجتماعي جعل الشاعر علي كنعان ألَّا يحسَّ بالقرابة مع المجتمع والتعاطف معه، فتحدث الشاعر عن الذين يشاهدهم حوله بأنَّهم لا يدركون ولا يفهمون معنى الوجود، وهم كالأموات والجثث الهامدة التي لا روح لها ولا حياة بحيث فقدوا العواطف الإنسانيَّة وروح الحياة، فصبّ الشاعر غضبه على أبناء جلدته الذين ليسوا بمستوى وعيه وتطلعاته منشداً:

«في (رأس شمرا)[43] **لا تراثٌ/ لمن تلوَّثَ بالجراحِ أو العرقِ/ ... في رأس شمرا لا فصول:/ الزرع ينبت في الهواءِ/ فلا ثمارَ ولا جذورَ ولا ورقِ/ في رأس شمرا يستوي الأحياء والموتى/ ويختلطُ الشروق مع الغسقِ!».**[44]

حينما نمعن النظر في النصوص التالية نجد الغربة الاجتماعية تحمل بين طياتها على السخط، والضجر، والتبرم، والغضب والتمرد الذي تجذّر في كيان الشاعر من جراء اصطدام وعدم توافق مبادئه مع مبادئ الآخرين، ونشأ هذا النوع من الاغتراب إثر عوامل عدّة، منها: الانحطاط الخُلقي، والظلم والتعسف الاجتماعي الذي انتاب المجتمع، فأنشد الشاعر علي كنعان في هذا الحقل قائلاً:

«... موحشٌ ليلُكم المحرومُ من سحرِ المدينة/ لا أرى فيه سوى حفنةِ أشباحٍ حزينة/ ورمالٍ ونباحٍ مختنقٍ/ وصبايا كالرخامِ المحترقِ/ وبيوتٍ من عصيٍّ وخِرقِ!».[45]

يُعدُّ التدهور في الظروف الاجتماعية من أهم الأسباب التي أدت إلى انطواء الشاعر على نفسه، ومن ثمَّ تبلورت بصمة الألم لديه بسبب القيم والأعراف السائدة في المجتمع، لذا اختار الشاعر التمرد والعصيان لإصلاح الموجود والوصول إلى ماهو مطلوب، ولكن في الوقت نفسه كان الشاعر على ثقة كبيرة بأنَّ أحلامه وأمانيه ليست سوى أصداء عميقة من الشعور بالغربة بين أبناء جنسه، فأنكرهم واتخذهم أموات. ومن هذا المنطلق تجلت أصداء تمرد الشاعر على الواقع الحالي في النصوص التالية، وذلك للتعبير عن العاهات الكثيرة والرسوم والعادات البالية التي انتابت المجتمع؛ ومن الملاحظ في هذه النصوص الشعرية هو تصوير الشاعر للنظم الاجتماعية السائدة والكائنة في عقول أبناء وطنه بالصخرة الصماء التي تربض على عقولهم، وتحول بينهم وبين الحرية والانفتاح الفكري، بحيث حولت حياتهم إلى جحيم لا يطاق:

«قبيلةٌ مثخنةٌ بدائها الخفيّ/ ريح السموم حوَّلت واحاتها/ إلى ملاه وتكايا وحصون/ ... وأهلُها داخوا مع العصر الذي/ تحكمُه طاحون/ يلهو بهم تهافتُ الموتى/ ... فلست تدري أيُهم ميْتٌ/ وأيٌّ حيّ؟/ قبيلةٌ تبحثُ عن خلاصها ../لكنها تناست الفعلَ الذي/ يحوِّل الزيتَ إلى ضياء/ فلم تجد في رأسها الصخريّ/ من بارقٍ ترجوه/ إلا سحبَ الأفيون!».[46]

من الملاحظ في هذه النصوص أنَّ الشاعر يأمل العثور على صديق يتحلى بخالص الإحساس، ورقّة القلب وفيضان الشعور؛ ولكن من صبغة الحزن واليأس التي أضفاها الشاعر على كلماته أنَّه يرى أنّ معظم الناس يفقدون الصلاحيَّة للصداقة والإخاء:

«عشتُ دهراً وأنا أبحث عن عينين/ أحكي لهما بعضَ شجونِ الروحِ/ لكنَّ الملايينَ هنا دون عيون!».[47]

الاغتراب الاجتماعي والعاطفة الإنسانية الملتاعة خلقت في كيان الشاعر نوعاً من الإثارة النفسية، مما أعانه على تصوير مشاعر أبناء جنسه النفسية والروحية التي اكتظت بالإضطراب والخوف والضغط الروحي الذي قد حوّل حياتهم إلى جحيم لا يطاق. بناءً على هذا، وجد الشاعر في التفاوت الطبقي الهائل بين فئات الشعب المختلفة واستغلال الأفراد للشعب معياراً لمأساة المجتمع، بحيث لم يجدوا أداةً لتضميد ألم الحزن والإحباط لديهم سوى الموت والانسلاخ من الحياة كي يبلغ الاغتراب فيهم ذروته فيبقى الصوت الأقوى للفردية، لكي ينجوا بنفسهم من مأزق هذا الانتماء القيمي:

«جثة في شارع البحر .../ أكانت غُربةُ الملحِ هي العلَّةَ/ أم حُمَّى رياحِ الهندِ/ أم شمسُ المدارِ؟/ ... تسم الغربةُ أطلالَ محيَّاهُ/ بألوانٍ من القهرِ العميقِ/ جلده المدبوغ بالرمضاءِ/ رقٌّ جاهزٌ للنسخِ/ لم ينقش سوى الموتِ عليه أحرفه».[48]

الاغتراب الاجتماعي جعل الشاعر على أن يتخذ موقفاً من عادات المجتمع وتقاليده التي حدَّت من حرِّيته، فالشاعر علي

كنعان يعتقد بأنَّ لا هَمَّ لهذه القيم الاجتماعية البالية اللئيمة التي حرمته لذة الحياة والتمتع بجمالها إلا التلذذ بتعذيب الضحيّة. تعاظم شعور علي كنعان بالعزلة والضياع عندما أجبرته الغربة الخضوع لمنظومة القيم الاجتماعية البائدة، لذا وصف الشاعر رؤيته للعادات والتقاليد التي حرمته من أبسط حقوقه، حقّه في الحب والتمتع بالحياة؛ ومن هذا المنطلق يشبِّه الشاعر أيضاً غربته الاجتماعية وحرمانه من حقوقه بغربة اللغة العربية في المنفى وبواكير انهيارها، وما تعانيه من ازدراء وتهميش.

«واليكم أشلاء جثتي، يا أصحاب/ أتركها عاريةً لتستروها قبل أن تتفسَّخ/ مثلما تفسَّخت أبجديةُ بني قحطان».[49]

الشاعر يرى نفسه غريباً في مجتمعه الذي ليس على مستوى المسؤولية، بحيث يعجّ شتى أنواع مظاهر الفساد به وتسيطر على مجتمعه قوى النفاق، والتخلف و اللاإرادة. المجتمع الذي قلب الأُمور رأساً على عقب، فالسيادة للأوغاد، والنفي والتشريد للنخبة من أبنائه. ومما يسترعي الانتباه أنَّ الشاعر يرى المجتمعَ قد جاوز الحدّ في ذلّته وتحمّله للإمتهان، حتى يصل الأمر بالشاعر إلى أن يرى كلَّ شيء في المجتمع لا ينفع أن يكون سليماً سوى حليب الأُمهات:

«هات حدِّث عن فساد الملح/ كُلُ شيءٍ فاسد إلا حليبَ الأُمَّهات/ ألا ترى كم يعشقون العلبَ المُهرَّبة!/ في جوٍّ سرطانيٍّ موبوء».[50]

6_3 الغربة السياسية

يستمرّ الشاعر علي كنعان في بيان غربته واصفاً حرمانه من أبسط حقوقه في التعبير عن الرأي وما مدى الكبت والبطش الذي تمارسه السلطات. ويشير الشاعر أيضاً من خلال هذه النصوص الشعرية إلى ما فعله قادة الساسة وجلاوزتهم من أعمال تعسفية بحقّ أبناء شعبهم الذين عليهم أيضاً أن يتحملوا مرارة الواقع وأعباء ضنك العيش والفقر المُدقع؛ فكأنَّ حتى هطول المطر الذي يمثل باعثاً على السعادة والفرح بمثابة الرصاص الذي يخترق جسد البلاد والعباد في أرض الوطن. ويجب ألّا ننسى بأنَّ للوطن مكانة عزيزة لدى الشاعر، بحيث يحبّ وطنه مهما كان. الوطن وإن جار على الإنسان عزيز، وأهله وإن شحوا كرام. فهل يمكن للشاعر أن ينسلخ عن الوطن وهويَّته؟!؛ صحيح أنَّهُ يشعر بالاغتراب في الوطن، وصحيح أنَّ الوطن جرّعهُ الغصص والمرارات إلا أنَّه منه وفيه، وليس له غيره. لذا لم يتراجع الشاعر قيد أنملة عن مواصلة طريقه في الدفاع عن البلد، بحيث لديه الإستعداد أن يضحي بالغالي والنفيس من أجل تحرير أرض وطنه من براثن الظلم والاضطهاد.

«معذرةً إن كانت كلماتي/ كجذوع شجيرات هرمة/ في عصر يرفض أكْلَ الخبز البايت/ أرضي لم تنبت من سنوات/ غير الصخر/ والمطر الأخضر صار رصاصاً/ ماذا لو أصنع من هذا الصخر/ فؤوساً وحرابا؟!».[51]

الشعور بالاغتراب السياسي لدى الشاعر علي كنعان متجذّر في وعيه الفكري السياسي الذي لا يستطيع أن يتحمل أيّ نوع من الظلم والجور. الشاعر بدل من أن يخاطب الساسة والحكّام الظالمين يتوجّه إلى أبناء جلدته ويدعوهم إلى الإقدام والإنتفاضة، لأنَّ الشعب إذا وقف مكتوف الأيدي فهذا لا يجدي نفعاً ولا طائل تحته، لذا أنَّهم لو رفضوا الظلم لرُفع الظلم عنهم. صار الإنسان أقلّ كرامة وشأناً بحيث حُرم من أتفه أسباب العيش حيث انقلبت الأُمور واضطربت الأحوال واكفهرّت آفاقُ البلاد كلّها، فليس أمامهم سوى خياران، إما أن يثور الشعب بوجه الطغاة ويُحطّم القيود ويفوز بالحرية وكرامة العيش، وإما أن يظلّ مقيَّداً بالقيود مسلوب الإرادة صاغِر:

«صار السكوت قرص سم في العجين/ صار السكوت دمَلاًمحتقناً بالوحل والسخام/ ... صار السكوت جيفة/ تتنقل وجه الأرض بالديدان/ ... يا مستسلماً للقمل والذباب والغبار/ يا خارجياً مثقلاً بالخوف والسكوت والهوان/ إن شئت أن يبقى/ في دمك الباقي على الحقب/ شيءٌ من الإنسان/ فلتشرع اليدين واللسان/ كالفأس .. أو كالنار/ في عالمٍ يئن من فداحة الظلام/ والديدان».[52]

يدعو الشاعر علي كنعان الشبابَ إلى رفض الظلم والإنتفاضة، منددا بالظلم والقمع الذي يذوقه الشعب يوميًّاً ويمارس بحقّ الأبرياء، فالشاعر يشكو تنكّر الزمان للمعايير الإنسانية والأخلاقية بحيث يحظى الأوغاد والمجرمون بالسيادة والحريّة، و صار كلّ دنيء ووضيع صاحب الرأي والقرار في المجتمع، ويحظى النخبة و الأناس الطيبون من أبناء الشعب بالتشريد، والنفي والقتل.

«.. فلتضرموا الحرائق الحمراء يا أطفال/ ولتشرعوا الفؤوس يا **رجال/ ثورة شعب غاضب/ مقتلع من تربة الوطن/ وليس في لغته أو دمه/ هباءةٌ من صدأ النسيان./ ثورة عمال بلا ضمان/ ثورة فلاحين جائعين/ ثورة طلاب بلا حرية/ .. لتشرعوا الفؤوس عاليا/ ولتقلعوا جذور هذا الورم الخبيث».**[53]

لقد صوّر الشاعر في النصوص التالية حال بلده وما أصابه من النكبات والفتن والويلات، بحيث خيّم الإستبداد والإختناق على موطنه. فقد شبَّ الشاعر علي كنعان ثائراً وشنَّ هجمات عنيفة على الأنظمة المستكبرة والحكام الظالمين وقادة الطغاة، داعياً الناسَ الأبرياء بشكلٍ عام وأبناء شعبه المضطهد بشكلٍ خاص إلى الثورة وتقرير المصير، ويطالب الجناة والمجرمينَ بعيشة ناعمة مرهفة، لأنّ الإنسان في مجتمعه ليس أقل كرامةً وشأناً من باقي البشر، فصالَ الشاعر صولة حر، مطالباً تحرير بلاده من أيدي المتمردين. الشاعر علي كنعان بذل جهوداً كثيرة في سبيل تنبيه الشعب المضطهد لتحريرهم من براثن الظلم والجور بحيث نراه يكشف عما فعلت الحروب بالناس الأبرياء في إشاعة المُثل الذميمة، وهتك الحرمات والنواميس، واتخذ الشاعر هذا ذريعة لإيقاظ الشعب عن نومهم الطويل وتعرفهم على حقوقهم الضائعة:

«ومن جوف أحجية العسف والقهر والجوع/ أصرخ .. أصرخ .. أصرخ ../ حتى تجفَّ عروقُ الهواء/ وتختنقَ الأرضُ غرقى برائحة الكلمات القتيلة:/ اتركوا لي بلادي/ اتركوا لي مدينةَ حبي/ واتركوا أحرفَ اسمي، ملامحَ وجهي/ ... اتركوا لي هواء نظيفاً من الرعب، ريان بالعافية/ لأحيا كباقي البشر/ لست وحشاً ../ ولا جملاً لبداوة هذا الزمان/ وأنا لست برميل زيت ../ ولا بائعاً في المزاد/ كرهتُ الحروبَ التي لا تصونُ البيتَ/ ولا تسترُدُ الأمانَ/ ولكنْ تزيد الضواري وسائلَ عنفٍ ونهبٍ/ والمساكينَ بؤساً وطولَ هوان».[54]

إذا أمعنا النظر يتضح لنا من خلال هذه النصوص الشعرية أنَّ انتشار الغدر، والخيانة والخصائل الذميمة من قبل الحُكام الظالمين وجلاوزتهم أدى إلى شعور علي كنعان بالغربة السياسية بحيث تجشّم العناء وتحمّل وعثاء السفر. ومما لا شك فيه أنَّ هذه الظروف المتدهورة دفعت الشاعر علي كنعان نحو الغربة عن وطنه والتشرد من بلدٍ إلى بلد آخر، لذا يجد الشاعر الأمن والإستقرار في الهروب إلى البلدان النائية الأخرى:

«هارباً من دبقِ العيش البهيميّ/ ومن قيءِ التكايا/ وخفافيش القبور/ حاملاً ملء حنين الروح/ أشجان المنافي/ والتياعات العصور/ مدنفاً ألقي بأوجاعي وأحلامي ../ على أكتاف صور».[55]

الخاتمة

الخصائص التي اتضحت من خلال دراستنا على ما تقدّم لمظاهر الاغتراب في شعر علي كنعان هي كالتالي:

1. صَوَّرَ لنا الشاعر جوانب مِن أحداث حياته في البلاد المغتربة بحذافيرها، ومِن أهمّ النتائج التي توصلنا إليها مِن هذه الدراسة: بيان المحن الشاقة والمصائب الجسيمة التي جرت عليه، فتجاوز الشاعر في شعره من ذكر المأساة والمحن الشاقة والنكبات والمصائب الجسيمة إلى رفض جور واضطهاد الجبابرة وأعمالهم التعسفية، والمطالبة بالثورة على قادة الطغاة والهيمنة.

2. كانت جميع أَشعار علي كنعان مرآةً لِخلجات نفسه ومقومات فكره، واصفاً حُبّه لبناء عالم نموذجي، لذا سارَ الشاعر على خُطى القدماء في فن الاغتراب.

3. أضاف الشاعر في نصوصه الشعرية طابع الابتكار وروعة الجمال، فأخذت أشعاره بمجامع القلوب، وذلك من خلال خلقه ببراعة للصور الشعرية الرائعة التي تواكب التطورات الاجتماعية والسياسية، ومَزجها بالطابع اليومي الذي ألبَسَ الموضوعَ ثوباً جديداً، وجعل لشعره مكانة متميزة متفوقة.

4. حاول الشاعر من خلال تعبيره عن مشاعره المرهفة الرقيقة إيصال صورة موجزة إلى المتلقي بشكل أو بآخر عن الاغتراب ومظاهره، متخذاً هذا الشيء حافزاً لإثارة أحاسيس القلوب.

5. كان الشاعر يمزج عواطفه الصادقة التي تتدفق ينابيعها من داخله بألفاظه السهلة البسيطة التي تحمل معاني كبيرة وأغراضه السامية، فكان شعره يتميزّ بالدقة في التعبير وبلاغته، وفصاحة وروعة البيان وقوَّته، وجزالة الأسلوب ورصانته ونصاعته، وحسن الصياغة والديباجة، والوضوح في الألفاظ، والبراعة في التصوير، ليتخذ الشعرَ وسيلةً للوصولِ إلى أهدافه العالية، ألا وهي بيان مظاهر الاغتراب.

الهوامش

(1). قيصر عبد الفتاح عايش، معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002م، ج4، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 2003م/ 1424هـ.ق: 307.

(2). محمد غنيمي هلال، الرومانتيكية، بيروت، دار العودة، 1986م: 87.

(3). علي كنعان، الأعمال الشعرية، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2010م: 778 – 779.

(4). م.ن: 808.

(5). م.ن: 47.

(6). م.ن: 251.

(7). م.ن: 303.

(8). م.ن: 372.

(9). م.ن: 550.

(10). «إيزو»: منتجع سياحي في شبه الجزيرة الممتدة إلى الجنوب من طوكيو، ولها وقعها المحبب في الأدب الياباني.

(11). كنعان، م.س: 553-554.

(12). م.ن: 572.

(13). م.ن: 579.

(14). جعفر دلشاد، وآخرون، «الغربة في الشعر العربي؛ الشاعر العراقي المهاجر نموذجاً»، مجلة العلوم الإنسانية الدولية، جامعة تربيت مدرس، العدد 15، السنة الخامسة، 2008م: 70.

(15). كنعان، م.س: 40-41.

(16). م.ن: 49.

(17). م.ن: 60.

(18). م.ن: 61.

(19). م.ن: 84.

(20). م.ن: 85.

(21). م.ن: 168.

(22). م.ن: 428.

(23). م.ن: 614.

(24). م.ن: 619.

(25). م.ن: 53.

(26). م.ن: 163.

(27). م.ن: 463-464.

(28). م.ن: 537.

(29). م.ن: 568-569.

(30). م.ن: 570.

(31). م.ن: 572.

(32). م.ن: 722.

(33). جعفر محمد راضي،الاغتراب في الشعرالعراقي المعاصر؛ مرحلة الروّاد، دمشق، اتحاد الكتّاب العرب، 1999م: 45.

(34). كنعان، م.س: 48.

(35). م.ن: 54.

(36). م.ن: 55.

(37). م.ن: 136.

(38). م.ن: 432.

(39). م.ن: 572-573.

(40). سميرة سلامي،الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ط1، دمشق، دار الينابيع، 2000م: 151.

(41). كنعان، م.س: 70.

(42). م.ن: 28-29.

(43). «رأس شمرا أو غريت»: مدينة أثرية على الساحل السوري، وفيها عثر على لوح يحمل أول أبجدية حرفية وليست مقطعية.

(44). كنعان، م.س: 39-40.

(45). م.ن: 61-62.

(46). م.ن: 407-408.

(47). م.ن: 522.

(48). م.ن: 678.

(49). م.ن: 692.

(50). م.ن: 723.

(51). م.ن: 221.

(52). م.ن: 270-271.

(53). م.ن: 289-290.

(54). م.ن: 300-301.

(55). م.ن: 467.

المصادر و المراجع

1. راضي،جعفرمحمد (1999م)،الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر؛ مرحلةالروّاد،اتحاد الكتّاب العرب،دمشق.

2. دلشاد، جعفر، وآخرون، «الغربة في الشعر العربي؛ الشاعر العراقي المهاجر نموذجاً»، مجلة العلوم الإنسانية الدولية، جامعة تربيت مدرس، العدد 15، السنة الخامسة، 2008م.

3. سلامي،سميرة (2000م)،الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ط1، دار الينابيع،دمشق.

4. عايش، قيصر عبد الفتاح (2003م/ 1424هـ.ق)،معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002م، ج4، ط1، دار الكتب العلمية،بيروت.

5. غنيمي هلال، محمد (1986م)،الرومانتيكية، دار العودة،بيروت.

6. كنعان، علي (2010م)، الأعمال الشعرية، ج1و2، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت.